حين اسلم عمر مع اسلام حمزة ، وعرفوا أنهما سيمنعان رسول الله (ﷺ)، وينتصفون بهما من عدوهم) (١)

وإذا كانت الدعوة الإسلامية قد عزت بمال خديجة وأبى بكر ، فقد عزت بهيبة عمر وحمزة بن عبد المطلب رضى الله عنهم ..

لهذا الأمر اغرى الضعفاء ذوى القلوب الطيبة بدخول الإسلام ، وليكونوا عمدا له فى الارض ، وتتابع الناس على مبايعة الرسول (ﷺ) على الإسلام ، وهذه شهادة ابى سفيان أمام هرقل عظيم الروم حينما سأله هرقل عن اتباع المصطفى (ﷺ) (٢)

(ايزيدون ام ينقصون ؟ قلت : بل يزيدون) وفى الحديث (وسألتك ايزيدون أم ينقصون ؟ فذكرت انهم يزيدون ، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم)

كان عائلا من أصحابه فبارك الله فيهم من حوله فى مكة ، وخرجوا معه من مكة إلى المدينة مبايعين على الهجرة ، وصاروا والأنصار قوة متماسكة كالبنيان المرصوص وكالجسد الواحد ، وتوالت بشائر الفتح عاما بعد عام حتى كانت حجة الوداع يوم أن وقف يلقى بيانه الجامع، كان يحيط به مائة واربعة واربعون الفا (٣) وانتشرا المسلمون من بعده (ﷺ) وفتحوا المشارق والمغارب ، وسيظل هذا الانتشار العجيب للإسلام حتى يصل الى الحد الذى وصفه الرسول (ﷺ) بقوله (إن الله زوى لى الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وأن أمتى سيبلغ ملكها مازوى لى منها ، واعطيت الكنزين الاحمر والابيض)(٤)

قال النووى تعليقا على هذا الحديث :

(وهذاالحديث فيه معجزات ظاهرة ، وقد وقعت كلها بحمد الله كما أخبر النبى (ﷺ) ، قال العلماء : المراد بالكنزين الذهب والفضة،والمراد كنزى كسرى وقيصر ملكى العراق والشام ، وفيه إشارة إلى أن ملك هذه

---

(١) البخارى مع الفتح : كتاب بدء الوحى : باب ٦ رقم ١٧ / ٤٢ ، ٤٣ .

(٢) قدر عدد الحجيج مع الرسول (ﷺ) : ص ٩٠ الفا الى ١٤٤ " انظر الرحيق المختوم ٥٤٢ .

(٣) الحديث عامه فى صحيح مسلم بشرح النووى : كتاب الفتن واشراط الساعة ١٢/٨ من ثوبان ، وفى سنن ابى داود كتاب الفتن والملاحم : ٩٥/٤ برقم ٤/٥٢ .

الأمة يكون معظم امتداده فى جهتى المشرق والمغرب ، وهكذا وقع ، وأما فى جهة الجنوب والشمال فقليل بالنسبة الى المشرق والمغرب) (١)

وإذا كان الإمام النووى فى تعرضه لهذا الحديث بين أن امتداد الإسلام فى جهة المشرق والمغرب دون الشمال والجنوب ، لأن رؤيته هذه كانت انعكاسا لواقعه ولما وصلت اليه حدود الدولة الإسلامية انئذ .

أما الرواية الأخرى فهى أعم فى بيان أبعاد اتساع الرقعة الإسلامية على وجه الأرض وتغلغل الإسلام فى مناحيها ..

يقول (ﷺ) :

(ليبلغن هذا الامر - أمر الإسلام - ما بلغ الليل والنهار ، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين بعز عزيز أو بذل ذليل عزا يعز الله به الإسلام وذلا يذل الله به الكفر (٢)

وبلوغ الليل والنهار احاطتهما بالكرة الأرضية جميعا وبيت المدر ما أسس من مبانى وبيت الوبر ما صنع من الوبر كالخيام ونحوها

والمفهوم من الحديث هو أن الإسلام سيشع بنوره فى جنبات الأرض كلها حتى تشرق بنور ربها .

القول الثالث :

(أغناك بالقناعة فصرت بحال يستوى عندك الحجر والذهب ، لا تجد فى قلبك سوى ربك ، فربك غنى عن الأشياء لا بها ، وانت بقناعتك استغنيت عن الأشياء ، وأن الغنى الأعلى عن الشئ لابه ، ومن ذلك انه خيربين الغنى والفقر فأختار الفقر) (٣)

والقناعة اعظم ما يؤتى الرجل ...

يقول (ﷺ) : (ليس الغنى عن كثرة العرض ، ولكن الغنى غنى النفس (٤) وهو نوع كبير من انواع الغنى حرم منه كثيرمن الناس ، فلو

---

(١) انظر شرح النووى على صحيح مسلم ١٨ / ١٣ وما بعدها .

(٢) رواه أحمد فى مسنده ١٠٣/٤

(٣) مفاتيح الغيب : مجلد ١٦ - ص ١٩٨ ، لكن كيف اختار (ﷺ) الفقر ؟ هذا ما أوضحه فى حينه بمشيئة الله تعالى .

(٤) فتح البارى شرح صحيح البخارى : كتاب الرقاق : باب الغنى غنى النفس : ٢٦٧/١١ برقم ٦٤٤٦

أن ابن ادم أوتى كنوز الأرض وحرم القناعة لعاش اهون الناس . ولو لم يؤت الإنسان إلا هذا اللون من الغنى لصار أجل الناس ...

والقناعة هى اللباس الذى يستر به الانسان عورات نفسه ، وإلا فقد صار عاريا مهلهلا ...

إذا المرء لم يلبس ثيابا من التقى تقلب عريانا وإن كان كاسيا

وخير لباس المرء طاعة ربه ولا خير فيمن كان لله عاصيا

ولقد بين النبى (ﷺ) انها منحة لا يعطيها الله تعالى إلا لمن يستأهلها يقول (ﷺ) : (لو أن ابن ادم أعطى واديا ملآن من ذهب احب اليه ثانيا ، ولو أعطى ثانيا احب اليه ثالثا ، ولا يسد جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب) (١)

قال الطيبى (٢) : (يمكن أن يكون معناه ان الادمى مجبول على حب المال ، وانه لا يشبع من جمعه إلا من حفظة الله تعالى ووفق لإزالة هذه الجبلة عن نفسه ، وقليل ماهم)

وهذا التأويل لقوله تعالى : (ووجدك عائلا فأغنى) تأويل حسن وبيان لمزيد فضل الله تعالى عن نبيه (ﷺ) فالرسول (ﷺ) وإن أعطى نعمة المال كما – ذكر فى الرأى الاول – فإنه أعطى ما هو أعظم منه ، وهو نعمة الغنى عن المال ..

فما أكثر الذين يستغنون بالمال ، وما أقل من يستغنى عن المال . لهذا رأيناه (ﷺ) ما إن تصل الكنوز الى يديه من خمس الغنائم وغيرها حتى يبادر بتوظيفها توظيفا سديدا فى سبيل مرضاة ربه حتى ضرب المثل الاعلى والقدوة العظمى فى تعفف نفسه عما فى يده (ﷺ) .

القول الرابع :

كنت عائلا عن البراهين والحجج فأنزل الله عليك القرآن وعلمك مالم تكن تعلم فأغناك (٣)

---

(١) المرجع السابق : كتاب الرقاق : باب ما يتقى من فتنة المال : ٢٥٨/١ برقم ٦٤٣٨ .

(٢) فتح البارى : ٢٦١/١١ .

(٣) التفسير الكبير : العلامة الفخر الرازى : مجلد ١٦ – جزء ٣١ / – ص ١٩٨ .

وهذا قول له وجاهته أيضا ... فهو بيان لحقيقة كون النبى (ﷺ) كان غافلا عن كل أمور الشريعة حتى تنزلت عليه من السماء بطريق الوحى ....

قال تعالى : (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَـٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ) (٤).

وقوله تعالى : (وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا) (١).

وغير ذلك من الآيات كثير ، تبين انه (ﷺ) النبى الأمى بفضل عليه مولاه جل وعلا واغناه بالوحى الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلف ،فاغناه ورفع قدره بين الورى ، ولولا ذلك الوحى لما ساد هذا اليتيم الفقير ، ولما ملأت محبته قلوب المؤمنين به . ولما رفع ذكره (ﷺ) بين العالمين .

(٤) سورة يوسف : آية رقم : ٣ .
(١) سورة النساء : آية رقم : ١١٣ .

" المبحث الرابع "
ثم أغنى الله نبيه (ﷺ)

لقد حبب الله تعالى لنبيه (ﷺ) حياة الكدح ونشأه عليها ، فما عرف رسول الله (ﷺ) الراحة منذ وعى ما يدور حوله ، وكان (ﷺ) يشارك فى جميع الأعمال ، لا يتافف ولا يستنكف ..

عمل فى رعى الغنم ، وعمل تاجراً ، وشارك أصحابه فى العمل فبنى معهم المسجد وشاركهم فى أعمال الحفر ، وكان اشدهم عملا ، وكان يلقى بنفسه فى اتون المعركة غير هياب ولا وجل ...

لهذا وجدناه منذ نعومة أظفاره يحرص على ان يأكل من عمل يده وكان اول ما اشتغل به (ﷺ) هو :

" المطلب الأول "
" رَعْىُ الغَنم "

روى البخارى فى الصحيح عن ابى هريرة رضى الله عنه عن النبى (ﷺ) قال :

(ما بعث الله نبيا إلا رعى الغنم فقال اصحابه وانت ؟ فقال : نعم كنت أرعاها على قراريط لاهل مكة) (١)

ذكر الحافظ بن حجر – رحمه الله – فى شرح هذا الحديث ، مبينا مفهوم " القيراط " (٢)

(فى رواية ابن ماجه : كنت ارعاها لأهل مكة بالقراريط وكذا رواه الإسماعيلى عن المنيعى عن محمد بن حسان عن عمرو بن يحيى ، وقال سويد احد رواته : يعنى كل شاة بقيراط يعنى القيراط الذى هو جزء من الدينار أو الدرهم ، قال ابراهيم الحربى : " قراريط " موضع بمكة ولم يرد القيراط من الفضة ، وصوب ابن الجوزى تبعا لابن ناصر وخطأ سويدا فى تفسيره .

لكن رجح الأول لأن أهل مكة لا يعرفون بها مكانا يقال له قراريط ، وأما ما رواه النسائى عن طريق نصر بن حَزْن قال : (افتخر

---

(١) انظر فتح البارى شرح صحيح البخارى : كتاب الاجارة : باب رعى الغنم على قراريط : ٥١٦/٤ برقم ٢٢٦٢ عن ابى هريرة .

(٢) المصدر السابق : نفس المجلد والصفحة بتصرف سير

اهل الإبل وأهل الغنم قال رسول الله (ﷺ) - بعث موسى وهو راعى غنم، وبعث داود وهو راعى غنم ، وبعثت وأنا أرعى غنم أهلى بجياد ، فزعم بعضهم أن فيه ردًا لتأويل سويد من سعيد لأنه ما كان يرعى بالأجرة لأهله ن فيتعين أنه اراد المكان ، فعبر تارة بجياد وتارة بقراريط ، وليس الرد بجيد إذ لا مانع من الجمع بين أن يرعى لأهله بغير أجره ، ولغيرهم بأجره ، او المراد بقوله " أهلى " أهل مكة فيتحد الخبران ، ويكون فى أحد الحديثين بين الأجرة وفى الآخر بين المكان فلا يتنافى ذلك والله أعلم.

وقال بعضهم : لم تكن العرب تعرف القيراط الذى هو من النقد ، ولذلك جاء فى الصحيح (يستفتحون ارضا يذكر فيها القيراط) وليس الإستدلال لما ذكر من نفى المعرفة بواضح) ١ هـ

والمفهوم هنا ، أن القيراط يدور بين معنيين (١) أما الأموال ، وإما الأرض وسواء أكان المعنى انه (ﷺ) رعى الغنم على أرض مكة، واراد من القيراط المكان ، او أكان المعنى انه اراد الدانق والدراهم ، وليس هناك تعارض ، فلو أراد المكان لما عارض كونه رعى الغنم على أرض مكة على قراريط من الدينار والدرهم .

وتبقى الحكمة فى انه (ﷺ) كان يأكل من عمل يده

وسواء أكان رعيه الغنم فى بادية بنى سعد - كما ذكر صاحب الفتح الربانى (٢) أم كان فى مكة ، فإنه فى الحالين بيان لمشاركته الجادة فى حركة الحياة ، وإدرار الخير على نفسه وذوية.

وروى انه (ﷺ) قال : (ما هممت بأمر من أمر الجاهلية إلا مرتين. وروى أن إحدى المرتين كان فى غنم يرعاها ، هو وغلام من قريش فقال لصاحبه اكفنى امر الغنم حتى آتى مكة ، وكان بها عرس فيها لهو وزمر ، فلما دنا من الدار ليحضر ذلك القى عليه النوم فنام حتى ضربته الشمس عضمة من الله له) (٣)

---

(١) انظر صفة الصفوة : لابن الجوزى : ٢٤/١ ، المعجم الوجيز ٤٩٨ ، فختار الصحاح : محمود ابى بكر الرازى ٢٧٣ .

(٢) انظر الفتح الربانى فى شرح مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيبانى : ٢٠/ ١٩٥ ط دار الشهاب القاهرة

(١) البداية والنهاية : لابن كثير : المجلد الأول : ص ٢٤٢ .

وفى هذا الحديث بيان بحال رسول الله (ﷺ) من مرحلة من عمره كان ينصرف مثله لحياة اللهو ، ولما تحركت بشريته فى مشاركة قومة فى لهوهم صرفه الله ، وجعل له (ﷺ) عبرة من ذلك ليبقى فى طريق الجد ، وليمارس صعوبات الحياة وحياة الجادة والكدح عن طريق رعى الغنم فى هذه المرحلة من حياته الشريفة(ﷺ) .

الحكمة من وراء رعى الغنم

كون النبى (ﷺ) قد رعى الغنم كما صح بذلك الخبر وكونه يثبت أنها سنة الأنبياء قبله ...

(ما بعث الله نبيا إلا رعى الغنم)

(أ) فلأن الأنبياء هداة الأمم فلا بد أن تكون العلاقة بينهم وبين أممهم قائمة على الإستيعاب التام ...

ولن يتم الإستيعاب التام من الأنبياء لأممهم إلا إذا كانوا ذا مراس وتَرْية ...

والذى يرعى الغنم خاصة لابد له من صبر جميل ورحمة واسعة ويقظة تامة ،وقلب شجاع لا يخاف ذئبا ، ولا يخشى سبعا

قال العلامة بن حجر فى الفتح :

قال العلماء : الحكمة فى لهام الأنبياء من رعى الغنم قبل النبوة ، أن يحصل لهم التمرن برعيها على ما يكلفونه من القيام بأمر أمتهم ولأن فى مخالطتها ما يحصل لهم الحلم والشفقة لأنهم إذا صبروا على رعيها وجمعها بعد تفرقها فى المرعى ونقلها من مسرح إلى مسرح ودفع عدوها من سبع وغيره كالسارق وعلموا اختلاف طباعها وتفاوت عقولها فجبروا كسرها ورفقوا بضعيفها واحسنوا التعاهد لها فيكون تحملهم لمشقة ذلك أسهل مما لو كلفوا القيام بذلك من أول وهله ، لم يحصل لهم من التدريج على ذلك برعى الغنم .

وخصت الغنم بذلك لكونها اضعف من غيرها ، ولأن تفرقها اكثر من تفرق الإبل والبقر لإمكان ضبط الإبل والبقر بالربط دونها فى العادة المألوفة ، ومع اكثرية تفرقها فهى اسرع انقيادا من غيرها

ويوم أن يتمرس النبى على تلك الصفات ، ويتعامل مع طبيعة الغنم ، فسوق تكون ملكة عنده لا يتكلفها وسجية يتقنها ببراعة مع

قومه لهذا جاء وصف النبى (ﷺ) فى القرآن الكريم بسمو رفقه وشفقته على أمته ..

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ) (١)

وقوله تعالى : (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ) (٢)

٢ – حرص (ﷺ) على أن لا يكون عالة على عمه .

يقول د : محمد سعيد رمضان البوطى : (٣)

(أما أقباله على رعى الغنم لقصد اكتساب القوت والرزق ففيه ثلاث دلالات هامة :

الأول : الذوق الرفيع والإحساس الدقيق اللذان جعل الله تعالى بهما نبيه (ﷺ) ، لقد كان عمه يحوطه بالعناية التامة ، وكان له فى الحقوق والشفقة كالاب الشفوق ، ولكن (ﷺ) ما ان انس فى نفسه القدره على الكسب حتى اقبل يكتسب ، ويجهد جهده لرفع بعض ما يمكن رفعه من مُؤنَة الانفاق عن عمه وربما كانت الفائدة التي يجنيها من وراء عمله الذى اختاره الله له ، فائدة قليلة غير ذات أهمية بالنسبة لعمه ابى طالب ، ولكنه على كل تعبير أخلاقى ، عمل رفيع عن الشكر ، وبذل الوسع ، وشهامة فى الطبع ، وير فى المعاملة

الثانية : وتتعلق بنوع الحياة التى يرتضيها الله تعالى لعباده الصالحين فى دار الدنيا لقد كان سهلاً على القدرة الإلهية ان تهئ للنبى (ﷺ) وهو فى صدر حياته من أسباب الرفاهية ووسائل العيش ما يغنيه عن الكدح ورعاية الأغنام سعيا وراء القوت .

ولكن الحكمة الإلهية تريد منا أن نعلم ان خير مال الإنسان ما اكتسبه بيمينه ، ولقاء ما يقدمه من الخدمة لمجتمعه وبنى جنسه وشر المال ما أصابه الإنسان وهو مستلق على ظهره دون أن يرى أى تعب فى سبيله ، ودون أن يبذل أى فائدة للمجتمع فى مقابله .

---

(١) سورة ال عمران : آية رقم : ١٥٩ .

(٢) سورة التوبة : آية رقم : ١٢٩ .

(٣) فقه السيرة : ص ٥٤ ، ٥٥ .

الثالثة : إن صاحب أى دعوه لن تقوم لدعوته أى قيمة فى الناس إذا ما كان كان كسبه ورزقه من وراء دعوته أو على أساس من عطايا الناس وصدقاتهم ولذا فقد كان صاحب الدعوة الإسلامية احرى الناس كلهم بأن يعتمد فى معيشته على جهده الشخصى أو مورد لا استجداء فيه حتى لا تكون عليه لأحد من الناس منة أو فضل فى دنياه فيعيقه ذلك عن أن يصدع بكلمة الحق فى وجهه غير مبال بالموقع الذى قد تقع من نفسه وهذا المعنى وإن يكن قد خطر فى بال الرسول (ﷺ) فى هذه الفترة إذ أنه لم يكن يعلم بما سيوكل اليه من شأن الدعوة والرسالة الإلهية ، غير ان هذا المنهج الذى هياه الله له ينطوى على هذه الحكمة ، ويوضح ان الله تعالى قد أراد أن لا يكون فى شئ من حياة الرسول قبل البعثة ما يعرقل سبيل دعوته ، او يؤثر عليها اى تأثير سلبى فيما بعد البعثة إذا فرعيه الغنم فى هذه السن بالذات كان لهذه الاعتبارات السابقة ..

أ – انها سنة الأنبياء تهيئة له لرعى الامة فيما بعد

ب – انه كان العمل المناسب لهذه المرحلة من حياته ، فرعى الغنم اقصى باب يقصده لطلب الرزق لم يكن فى وسعه غيره

٣ – ان الغنم بركة :

والبركة لها شأن عظيم ونصيب أوفر فى ارتباط البشرية بمنهج الإسلام والنبى (ﷺ) قد جاء ببركات السماوات والأرض لهذا اختار الله له رعى الغنم دون رعى الإبل ، ومما يدل على بركتها :

أ – عن حميد بن مالك بن خثيم انه قال : كنت جالسا مع أبى هريرة بأرضه بالعقيق ، فاتاه قوم من اهل المدينة على دواب فنزلوا ، قال حميد : فقال ابو هريرة : أذهب الى امى وقل لها : إن ابنك يقرئك السلام ، ويقول أطعمينا شيئا . قال : فوضعت ثلاثة أقراص من شعير وشيئا من زيت وملح فى صحفة ، فوضعتها على رأسى ، فحملتها اليهم، فلما وضعه بين أيديهم ، كبر أبو هريرة ، وقال : الحمد لله الذى أشبعنا من الخبز بعد ان لم يكن طعامنا إلا الأسودان التمر والماء ، فلم يصب القوم من الطعام شيئا ، فلما انصرفوا قال : يا ابن أخى : احسن إلى غنمك ، وامسح الرغام (١) عنها ، واطب مراحها وصل فى ناصيتها

---

(١) الرَغام : التراب ن والرُغام بالضم : المخاط .

فإنها من دواب الجنة ، والذي نفسي بيده! ليوشك ان يأتي على الناس زمان ، تكون الثلة من الغنم احب الى صاحبها من دار مروان (١)

والمستفاد من هذا الحديث :

أ – وصية ابى هريرة رضى الله عنه لحميد بن مالك بن الخيثم برعاه الغنم وتنميتها وتعهدها تماما على الذى احسن

ب – أن الغنم من دواب الجنة ، وفيه اشارة واضحة للمسلمين ان يحرصوا على إقتناء الغنم ، وفق ما تسمح به ظروفهم المعاشية – فهى مع تأثيرها الإيجابى فى اقتصاد الاسرة عامل تذكير للمسلم بالجنة وهذا أسمى ما يتمنى .

٣ – وهذا الحديث يدخل فى باب الرفق بالحيوان ، ورفعه الى هذه المنزلة ان يكون بعضه فى الجنة مثل الغنم وكلب اهل الكهف

ب – عن ابن الحنفية عن على رضى الله عنه ان النبى (ﷺ) قال : "الشاة فى البيت بركة ، والشاتان بركتان ، والثلاث بركات "(٢) والبركة من النماء والزيادة ، وبارك الله الشئ وفيه وعليه جعل فيه الخير والبركة(٣)

فالشاة غاء للخير وبركة من الله لصاحبها، وكلما زاد المرء فى عدد الشياة زيد له من الله تعالى

٤ – وأنها أقرب للرحمة :

فعن عبد الله المزنى رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: لا تصلوا فى عُطُن الإبل فإنها من الجن خلقت ، ألا ترون عيونها وهبابها اذا نفرت ، وصلوا فى مُراح الغنم ، فإنها هى أقرب من الرحمة(٤)

فكونها اقرب من الرحمة وانها من دواب الجنة كما فى حديث ابى هريرة السابق فهذا دليل على عظيم يمنها على صاحبها فى الدارين .

---

(٢) رواه البخارى فى الادب المفرد : باب ان الغنم بركة : ٢٥/٢، ٢٦ . برقم ٢٦٠ (الفائق فى الاخلاق والزينة ملخص فضل الله الصمد فى توضيح الادب المفرد ؛ تاليف فضل ابن الجيلانى المندى : = = تحقيق احمد بن محمد طاحون ، وانظر موطا مالك باب الصلاة فى مرابض الغنم : باب رقم ٥١ حديث رقم ١٧٩ مكتبة ابو بكر الصديق

(٣) البخارى فى الادب المفرد ٢/ ٢٦ .

(٤) المعجم الوجيز : ص ٤٦ .

(١) الفتح الربانى ترتيب مسند الامام احمد الشيبانى : ١٠٢/٣ .

٥ - وان أصحابها أقرب الى السكينة :

فعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله (ﷺ) قال (١) :

رأس الكفر نحو المشرق (٢) والفخر والخُيلاء فى أهل الخَيل الفدادين (٣) أهل الوبر والسكنية فى أهل الغنم

السكينة فى أهل الغنم لما جبلوا عليه من خلال رعيهم لها ، فهم متواضعون .

ومما يؤكد أن السكينة فى أهل الغنم هذا الحديث الطويل :

(ان ثلاثة من بنى إسرائيل ، ابرص وأقرع واعمى اراد ان يبتليهم ، فبعث اليهم ملكا فأتى الابرص ، فقال اى شئ أحب إليك؟ قال: لون حسن ،وجلد حسن ، ويذهب عنى الذى قد قذرنى الناس فمسحه فذهب عنه قذره ، وأعطى لونا حسنا . فقال : فأى المال أحب اليك؟ قال الإبل : أو قال البقر – شك الراوى ، فأعطى ناقة عشراء (٥) ، فقال : بارك الله لك فيها . فأتى الأقرع فقال : أى شئ أحب إليك ؟ قال : شعر حسن ، ويذهب عنى هذا الذى قذرنى الناس ، فمسحه فذهب عنه، وأعطى شعرا حسنا ، قال : فأى المال أحب اليك ؟ قال : البقر فأعطى بقرة حاملا قال : بارك الله لك فيها فأتى الاعمى فقال : أى شئ أحب اليك؟ قال : أن يرد الله إلى بصرى ، فأبصر الناس ، فمسحه فرد الله اليه بصره ، قال :فأى المال احب اليك ؟ قال : الغنم فأعطى شاة والدا فأنتج هذا ،وولد هذا ، فكان لهذا واد من الإبل ، ولهذا واد من البقر ولهذا واد من الغنم .

---

(٢) البخارى مع الفتح : كتاب بدء الخلق : باب خير مال المسلم غنم : ٦/٤٠٢ رقم ٣٣٠١

(٣) لأن الدجال سيخرج من المشرق من الكوفة بالعراق .

(٤) الفداد مالك المئين من الإبل الى الالف والجمع الفدادون ، وهم أيضا الحمالون والرعيان والبقارون والحمارون والفلاحون أصحاب الوبر الذين تعلوا أصواتهم فى مروتهم ومواشيهم ، وانما ذم هؤلاء لاستغالهم بمعالجة ماهم فيه من امور دنياهم اللاهية بها ، والغافلين عن الآخرة عن الآخرة ، وذلك يفضى الى قساوه القلب السكينة : الطمانينة والسكون والوقار والتواضع (٤) (فى اهل الغنم) وانما حض اهل الغنم بذلك لانهم غالبا دون اهل الإبل فى التوسع

(٥) الناقة العشراء الحامل القريبة الولادة (شرح النووى على صحيح مسلم ١٨/٩٨

ثم إنه أتى الأبرص فى صورته وهيئته فقال : رجل مسكين قد انقطعت بى الحبال فى سفرى (١) فلا بلاغ لى اليوم إلا بالله ثم بك ، اسألك بالذى أعطاك اللون الحسن ، والجلد الحسن ، والمال بعيرا أتبلغ به فى سفرى . فقال الحقوق كثيرة . فقال :كأنى أعرفك ، ألم تكن ابرص يقذرك الناس ، فقيرا فاعطاك الله ؟!

فقال : انما ورثت هذا المال كابرا عن كابر ، فقال : ان كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت .

وأتى الأقرع فى صورته وهيئته ، فقال له مثل ما قال لهذا ، ورد عليه مثل ما رد هذا . فقال : ان كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت .

وأتى الأعمى فى صورته وهيئته (٢) فقال : رجل مسكين وابن سبيل ، انقطعت بى الحبال فى سفرى فلا بلاغ لى اليوم الا بالله ثم بك أسالك بالذى رد عليك بصرك شاة اتبلغ بها فى سفرى .

فقال : قد كنت أعمى فرد الله الى بصرى ، فخذ ما شئت ، ودع ماشئت فوالله لا أجهدك اليوم بشئ أخذته لله عز وجل . فقال أمسك مالك فإنما ابتليتم ، فقد رضى الله عنك وسخط على صاحبيك (٣)

وفى رواية البخارى : وفقيرا فقد أغنانى (٤)

ومفهوم هذا الحديث الذى قارن بين ثلاثة ، فَضَلَّ صاحب البقر وصاحب الإبل وأفلح صاحب الغنم وكان ذا سكينة وهذا ما نستانس به فى بيان المقصود .

---

(١) انقطعت بى الحبال فى سفرى : هى الأسباب وقيل الطرق ، وفى بعض نسخ البخارى (الجبال) بالجيم ، وري الحبل ، جمع صلة ، ولك صحيح) النووى مسلم ٩٩/١٨ ، وفى فتح البارى : الحبال : جمع حبل : الأسباب التى يقطعها فى طلب الرزق ، وقيل العقبات ، وقيل الحبل : هو المستطيل من الرمل ، ولبعض رواه مسلم : " الحبال " : اى لم يبق فى صلبه) ٦ / ٥٨٠ .

(٢) فى صورته وهيئته : فى الثلاث معناه : اتاهم فى الصورة التى أتاهم بها أول مرة قبل ان يُحولوا إلى الخير ، ليكون ذلك ابلغ فى اقامة الحجة عليهم .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووى : كتاب الزهد ١٨ / ٩٨ عن ابى هريرة

(٤) ورواية البخارى فى كتاب الأنبياء : باب حديث ابرص وأعمى واقرع فى بنى اسرائيل برقم ٣٤٦٤ عن ابى هريرة وطرفه فى كتاب الإيمان والنذر برقم ٦٦٥٣ .

ومما يفهم من بركات الغنم كذلك ما ذكره البخارى – رحمه الله – بسنده المتصل عن ابى سعيد الخدرى رضى الله عنه ، أن رسول الله (ﷺ) قال :

(يوشك أن يكون خير مال الرجل غنم يتبع بها شغف الجبال ، ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن)(١)

واذا كان رسول الله (ﷺ) قد حث اصحابه على اقتناء الغنم لما فيها من بركة ، فإنه (ﷺ) كان اسبقهم لنيل تلك البركة ..

يقول الإمام بن القيم فى زاد المعاد : (واتخذ رسول الله (ﷺ) الغنم، وكان له مائة شاة ، وكان لا يحب أن تزيد على مائة ، فإذا زادت بهمة ذبح مكانها أخرى) (٢) وهكذا بحث الرسول (ﷺ) امته على الحرص على وجود هذا الخير فى حياتهم ، ويكون هو قدوة فى ذلك ، فلا يسعنا إلا أن نسجيب لننال هذا الخير وهذه البركة .

---

(١) البخارى مع الفتح : كتاب بدء الخلق : باب خير مال المسلم غنم : ٦/ ٤٠٢ ، ٤٠٣ برقم ٣٣٠٠ .

(٢) زاد المعاد ٦٦/١ .

المطلب الثانى التجارة

روت كتب السيرة أن رسول الله (ﷺ) كان تاجراً . من ذلك ما ذكره الحافظ بن كثير فى البداية والنهاية :

ثم أن ابا طالب خرج فى ركب تاجرا إلى الشام ، فلما تهيا للرحيل وأجمع السير حب به رسول الله (ﷺ) فيما يزعمون – فرق له ابو طالب وقال والله لأخرجن به معى ولا أفارقه ولا يفارقنى أبداً او كما قال فخرج به (١)

وفى هذا الخبر التقاء الركب ببحيرا الراهب وتبشير بحيرا عمه ومن معه بإرهاصات لسيدنا محمد (ﷺ) ، وتخويفه عمه من سفره معه إلى الشام خوفاً عليه من اليهود .

وفى تمام الخبر يقول ابن كثير :

فخرج به عمه أبو طالب سريعا حتى أقدمه مكة حين فرغ من تجارته بالشام (٢)

هذا الخبر الذى يرويه ابن اسحاق وابن كثير يبين طموح النبى (ﷺ) فى صغره وتعلقه بمخالطة قومه، وحرصه على الاستفادة من اسفارهم ، وصبابته بمشاركة قومه فى تجاراتهم ، وهو لا يزال حديث عهد بالحياة اذا قورن عمره آنئذ – بأعمار ركب قريش المتجة الى الشام .

وكان لتعلقه (ﷺ) بالتجارة واتقانه لها ، وتميزه الأخلاقى فى معاملاته التجارية أعظم الأثر فى أن يطلقوا عليه الصادق الأمين قالوا له يوم الصفا (ماجربنا عليك كذبا) (٣) ولأمانته الدقيقة كان مستودع امانات اعدائه ، ولهذا كان مما استبقى من أجله عليا – رضى الله عنه – هو أداء الامانات إلى أهلها .

يقول الحافظ بن كثير – رضى الله عنه – " أما على فإن رسول الله (ﷺ) امره ان يتخلف حتى يؤدى عن رسول الله (ﷺ) الودائع التى كانت عنده للناس ، وكان رسول الله (ﷺ) ، وليس بمكة أحد عنده شئ يخشى عليه إلا وضعه عنده لما يعلم من صدقه وأمانته (٤) كان رصيده

(١) البداية والنهاية : ٢ / ٢٣٩ .

(٢) المرجع السابق ٢ / ٢٤ .

(٣) انظر : فتح البارى بشرح صحيح البخارى :كتاب التفسير : باب تبت يدا ابى لهب : ٨/ ٦-٩ برقم ٤٩٧١ عن ابن عباس رضى الله عنه .

(١) صفوة السيرة النبوية : ١٢٦/٢ طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

الضخم (ﷺ) من الأمانة فى معاملاته حافزا كبيرا للسيدة خديجة رضى الله عنها لأن تعطى رسول الله (ﷺ) من الأجر أكثر من غيره .

يقول ابن الجوزى فى صفة الصفوة (١) :

قد ذكرنا انه خرج مع أبى طالب وهو ابن اثنتى عشرة سنة ، فلما بلغ خمسا وعشرين سنة ، قال له أبو طالب :

انا رجل لا مال لى وقد اشتد علينا الزمان ، وهذه عير قومك قد حضر خروجها الى الشام ، وخديجة تبعث رجالا من قومك ، فلو جئتها ، فعرضت نفسك عليها لاسرعت اليك ...

وبلغ خديجة ما قال له أبو طالب ، فقالت : أنا أعطيك ضعف ما أعطى رجلا من قومك . فقال أبو طالب : هذا رزق قد ساقه الله اليك . فخرج مع غلامها ميسره ، وجعل عمومته يوصون به أهل العير ، حتى قدما بصرى من الشام فنزلا فى ظل شجره ، فقال : نسطورا الراهب : ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبى . ثم قال لميسرة : افى عينه حمرة؟(٢)

قال : نعم لا تفارقه . فقال : هو نبى ، وهو أخر الأنبياء .

ثم باع سلعته ، فوقع بينه وبين رجلا تلاح ، فقال له : احلف باللات والعزى ، فقال رسول الله (ﷺ) ما حلفت بهما قط ، وإنى لامرؤ اعرض عنهما ، فقال الرجل : القول قولك

وقفه مع هذا القول :

١ – مساهمات النبى (ﷺ) فى التخفيف عن عمه من أعبائه الإقتصادية .

٢- ثقة عمه فى كفاءته التجارية ، وأنه حرى للقيام بهذا الدور .

٣ – كون السيدة خديجة رضى الله عنها تأمنه على قناطيرها المقنطرة من الذهب والفضة وهو رأس مالها – فهذا دليل على ثقتها فى امانته وكفاءته فالأمانة وحدها غير كافية فى المعاملات المالية ، بل لابد من الكفاءة وهذا ما عبر عنه القرآن على لسان يوسف عليه السلام:

---

(٢) صفة الصفوة : (١/٢٤ – ٢٥ .

(٣) المراد بالحمرة .

(قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ) (١)

يقول الشيخ محمد الغزالى – رحمه الله تعالى –

ونلحظ أن يوسف عرض الخصائص النفسية والعلمية التى ترشحه للمنصب ، فهو ليس عابدا عفيفا فقط ، بل صاحب خبرة فى شئون المال يعرف كيف يحصله ، وكيف يوزعه (٢)

وقد ذكرت – سابقا – قول الصديق أبى بكر – رضى الله عنه–وهو يصف كثرة مالها رضى الله عنه : (فأخرجت دنانير وصبتها حتى بلغت مبلغا لم يقع بصرى على من كان جالسا قدامى لكثرة المال) (٣)

فكونها تعطى مالها لشخص لم تتعامل معه من ذى قبل يتاجر فيه ، لم يكن فعلها هذا إلا نتيجة ما تواتر عنه (ﷺ) من خبرته التجارية مع تحقق صدقه وأمانته (ﷺ) .

٤ – وكونها تعطيه (ﷺ) الأجر مضاعفاً ففى ذلك نظرتان الأولى : لعلمها ان مالها سيزيد بأمانته فمن حكيم تصرفها ان تضاعف له الأجر لذلك .

الثانية : كثرة دخله من التجارة ، وإدرار المال عليه ببركة التجارة.

ومما يدل على حب النبى (ﷺ) للتجارة أنه بعد زواجه (ﷺ) من السيدة خديجة صاحبة الثراء الوفير له يركن إلى حياة الدعة فى ظل هذا الرغد والنعيم الذى صار بين يديه ، بل كان ذا جهد ظاهر فى إغنائه..

وهذا ما ذكره الشيخ الغزالى رحمه الله تعالى فى فقه السيرة

وقد استأنف محمد (ﷺ) ما ألفه بعد زواجه من حياة التأمل والعزلة ، وهجر ما كان عليه العرب فى احفالهم الصاخبة من إدمان ولغو وقمار ونفار ، وإن لم يقطعه ذلك عن إدارة تجارته وتدبير معايشه ، والضرب فى الأرض والمشى فى الأسواق (٤)

---

(١) سورة يوسف : آية رقم : ٥٥ .

(٢) التفسير الموضوعى : ص ١٨٤ .

(٣) مفاتيح الغيب للفخر الرازى : ١٦ / ١٩٨

(١) فقه السيرة : ٨٢ .

ولقد حرص الرسول (ﷺ) فى تأسيسه للدولة الإسلامية على تنمية التجارة حيث اهتم بالسوق ، وأسس فى المدينة سوقا يستقل بها المسلمون عن السوق التى كان يسيطر عليها اليهود وكان يمر عليها (ﷺ) بين حين وأخر فيرشد المسلمين ويعلمهم ويخوفهم الله ، ويراقب السلع المعروضة .

ولما مر ﷺ بصبرة طعام ادخل يده فيها فنالت أصابعه بللا ، فقال : (ما هذا يا صاحب الطعام) قال : أصابته السماء يا رسول الله : قال : أفلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس ؟ من غشنا فليس منا (١) وهذا من جوامع كلمه (ﷺ) ايجاز وسهولة لفظ حتى يفهمها جميع المسلمين ويحفظ من الجميع ، ولتكون حجة عليهم ، وينحقق الضمان فى المجتمع المسلم خلوه من الغش فى المعاملات

ولقد وردت الاحاديث الكثيرة والآثار العديدة التى اثرت عن سيدنا رسول الله (ﷺ) والتى تبين عنايته الفائقة بالسوق.

* الحكمة من عمل النبى (ﷺ) بالتجارة

كون رب العزة تبارك وتعالى قد اختار لنبيه (ﷺ) التجارة موردا من موارد الرزق ، فإن ذلك لا يتم إلا بحكم ربانية عظيمة منها :

١ – ان يضرب فى الأرض يبتغى من فضل الله .

٢ – وان يضرب فى الأرض ليطلع على العالم من حوله ، وليعرف طبائع الأمم فـ (قد ذهب بتجارتها (السيدة خديجة)إلى "قريش" مرتين قرب خميس مشيط وكانت تابعة لليمن أو حباشة سوق بتهامة من نواحى مكة أو الشام فربح بتجارتها) (٢) ، ومن هنا فقد ضرب الرسول (ﷺ) فى الأرض شمالاً وجنوبا ليتعرف على طبائع الناس ، وليحيط علماً بأخبار المجتمعات ، واحوالهم المختلفة .

قال المامون : (لا شئ ألذ من السفر فى كفاية وعافية ، لأنك تحل كل يوم فى محله لم تحل فيها ، وتعاشر قوما لم تعرفهم) (٣)

---

(٢) رواه مسلم والترمذى وابن ماجه عن ابى هريرة .

(٣) السيرة النبوية : لفضيلة الشيخ / محمد متولى الشعروای ص ١١٠ تحقيق مركز التراث لخدمة الكتاب والسنة / مكتبة التراث الإسلامى . ط ٢ .

(١) المستطرف فى كل فن مستطرف / شهاب الدين محمد بن أحمد الابشيهى : ١٩/٢ دار مكتبة الحياة – بيروت – لبنان – سنة ١٩٨٧ .

ورحم الله الشافعي حينما قال :

ما في المقام لذي عقل ودي أدب ... من براحة فدع الاوطان واغترب

سافر تجد عوضا عمن تفارقه ... وانصب فإن لذيذ العيش في النصب

اني رأيت وقوف الماء يفسده ... ان ساح طاب وان لم يجر لم يطب

والأسد لولا فراق الأرض ما افترست ... والسهم لولا فراق القوس لم يصب

والشمس لو وقفت في الفلك دائمه ... لملها الناس من عجم ومن عرب

والتبر كالتراب ملقى في اماكنه ... والعود في أرضه نوع من الحطب

فإن تغرب هذا عز مطلبه ... وإن تغرب ذاك عز كالذهب (٢)

ولقد افاد الرسول (ﷺ) كثيرا من أسفاره

يقول د / علي الصلابي :

إن النبي (ﷺ) استفاد من سفره وتحواله مع عمه ، وبخاصة من أشياخ قريش ، حيث اطلع على تجارب الاخرين وخبرتهم ، والاستفادة من ارائهم ، فهم أصحاب خبرة ودراية ، وتجربة لم يمر بها النبي (ﷺ) في سنه تلك (٣)

وكان لهذه الافادة اثرها في معرفة قبائل العرب وبطونهم مما كان له أكبر الأثر في حواراته (ﷺ) معهم ، يوضح هنا حديثه (ﷺ) لعمه العباس ، حين قال له : (لا أرى لي عندك ، ولا عند اخيك منعه ، فهل انت مخرجي الى السوق غدًا حتى نقر في منازل قبائل الناس " ؟

(٢) ديوان الامام الشافعي – ص ٢٩ – ٣٠ دار المنار .

(٣) السيرة النبوية : ٦٩/١ .

وكانت مجمع العرب قال : فقلت هذه كندة ولفها ، وهى افضل من مح البيت من اليمن ، وهذه منازل بكر بن وائل ، وهذه منازل عامر بن صعصعه.فاختر لنفسك ؟

قال : فبدأ بكنده فاتاهم فقال : (ممن القوم ؟) قالوا : من اهل اليمن ، قال : (من أى اليمن) ؟ قالوا : من كنده قال (من اى كنده)؟ قالوا : من بنى عمرو بن معاوية قال : فهل لكم الى خير؟ قالوا وما هو : قال : تشهدون ان لا إله إلاالله وتقيمون الصلاة وتؤمنون بما جاء من عند الله)

ثم (انصرف من عندهم ، فاتى بكر بن وائل فقال من أى بكر بن وائل قالوا : من بنى قيس بن ثعلبة)

(قال الكلبى : فاخبرنى عبد الرحمن المعايرى عن اشياخ من قومه قالوا : اتانا رسول الله (ﷺ) ونحن بسوق عكاظ ، فقال : " ممن القوم؟ " قلنا من بنى عامر بن صعصعه ، قال : " من أى بنى عامر بن صعصعه قالوا : بنو كعب بن ربيعة " (١)

وهكذا رأيناه (ﷺ) يعرف أنساب العرب من حوله مما كان له اكبر الأثر فى تأثيره على المدعوين ..

ان التجارة عمود من أعمدة الاقتصاد ، والاقتصاد الإسلامى ركن ركين من النظام الإسلامى .

وإذا كان الإسلام قد جاء نظاماً شاملا لكل جوانب الحياة ، وجاءت أيات القرآن الكريم والاحاديث النبوية بيانا شاملا لهذا الجانب الإسلامى الشئ الذى حقق رخاءا اقتصاديا فى ديار المسلمين وإذا كان الرسول (ﷺ) قدوة عامة ، وهو الحاكم الأول فى حياة المسلمين وهو المؤسس الإقتصادى للدولة الإسلامية ، فلابد وأن تكتمل فيه القدوة العملية ..

ومن تمام القدوة العملية له (ﷺ) أن يمارس التجارة عمليا ويحيط بها خبرا ، وهذا ما قدره له ربه ، ولبث به فى الناس عمرا قبل الهجرة الى المدينة المنورة مما هيأ له (ﷺ) تشخيص الأدوية والعلل التى غرق فيها الناس ، وتاسيس اقتصاد لم تغرق له البشرية نظيرا .

---

(١) البداية والنهاية : للحافظ بن كثير ٣/١١٣ ، ١١٤ بتصرف كبير .

يتميز هذا النظام الإقتصادى (١) بأنه ربانى ، منطلقاته من الله ، وغاياته إلى الله ، ووسائله لا تحدد عن شرع الله .

وأنه أخلاقى يستمد أسسه من مكارم الأخلاق التى بعث (ﷺ) لاتمامها والمسلم مقيد بالإيمان والأخلاق فى كل نشاط اقتصادى يقوم به فى كسبه اذا اكتسب المال ، وفى تنميته إذا نماه ، وفى إنفاقه اذا انفقه .

وانه " إنسانى " هدفه هو تحقيق حياة طيبة ، وهو سبيل لتحقيق الرخاء البشرى وربط الإنسانية برباط المصالح المادية الإنسانية الهادفة الى الحب والإخاء

وأنه اقتصاد وسطى .. هدفه إعمار الحياة ، مع استغلال المال وسيلة لتحقيق الفوز بالجنة (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا) (٢) .

ومما يجدر الاشارة اليه فى هذا الصدد انه ينبغى على الدعاة الى الله تعالى التأسى بالنبى (ﷺ) فى مخالطة التجار ودوام نصحهم وتوجيههم توجيها سديدا .

فهناك فرق واضح بين داعية الى الله تعالى خبير بأمراض التجار فى السوق ، ويستطيع أن يوجه من خلال تلك الرؤيا ، وبين داعية يوجه معتصرا على ما يسمع من خلل يحدث فى حياة أولئك التجار .

لا شك أن النوع الاول أشد تأثيرا وأجدر على محاصرة تلك الأخلاق السيئة والعمل على علاجها .

---

(١) انظر : دور القيم والأخلاق فى الإقتصاد الإسلامى : د / القرضاوى ص ٢٧ وما بعدها بتصرف .

(٢) سورة القصص : آية رقم : ٧٧ .

المطلب الثالث

البركة

من أبرز المنن التى اغنى الله نبيه (ﷺ) بها البركة وهى بركة الله فى قليل الموارد فيكفى كثير البشر فى طويل الزمن حتى يظن انها لا تنتهى ..

ولقد لازمت البركة حياة النبى (ﷺ) جميعها ، بما فى ذلك الجانب المادى من طعام وشراب ونحو ذلك ، فراينا القليل فى يديه يكثر ويفيض بصورة عجيبة لدرجة تذهل الرائى والمستمع ..

وفى هذا المبحث سنبين بمشيئة الله تعالى ...

معنى البركة ، وأسسها كما رسمها القرآن ، وبعض صور البركة فى حياة النبى (ﷺ) وفى حياة بعض الصحابة بمباركة النبى (ﷺ) . ثم نبين أن البركة ثمرة من ثمرات جهد المرء فتقوى الله وعبادته وجهاد النفس جهاد وشقة يستوجب ذلك من الله عفو وغفران ...

البركة لا ينالها الكسالى ولا التنابلة بل امة الجهاد ، فكما ان الرزق فى السماء رتب على السعى (هو الذى جعل لكم الارض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور) فكذلك البركات المنزلة من السماء والموضوعة فى الأرض لا ينالها إلا أهل الإيمان والتقوى أهل العمل لله والمجاهدة فى سبيله ..

ومع تفصيل ذلك والله المستعان ....

(البركة لغة : (النماء والزيادة) المعجم ٤٦)

وفى القاموس المحيط : (النماء والزيادة والسعادة ، والتبريك : الدعاء بها) ٢ / ٢٩٣ .

قال الإمام القرطبى فى التفسير : (البركة كثرة الخير) مجلد ٨٩/٢.

والبركة ثمره من ثمرات شكر المنعم على نعمة ، قال تعالى : (وإذ تأذن ربكم لإن شكرتم لأزيدنكم) وتأذن بمعنى أعلم ، وكان ابن مسعود قرأ (وإذ قال ربكم لإن شكرتم لأزيدنكم) والمعنى واحد(١) وهى من أروع حسنات الدنيا التى رتبها على تقواه جل وعلا ، قال تعالى : (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ

(١) القرطبى مجلد ٥ ص ٢٢٥ .

الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ) (١) والمتأمل فى تلك الآية يدرك الآتى :

١ – ان البركات وقعت فى جملة جواب الشرط وهو الايمان والتقوى

٢ – وان الله تعالى قال (لفتحنا) ومقابلة هذه الاية بآية فاطر (ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم) يتبين ان الله اذا فتح لعبده باب بركة فلن يستطيع قوى الارض قاطبة ان تغلقه ، وذلك ليعلم العبد أن الرزق والبركة فيه ليس لاحد فيه تأثير بالسلب أو الإيجاب ، إنما هى الصلة بالله على التقوى والعمل الصالح .

٣ – وان الله تعالى قد جعلها (بركات) ولم يقل (بركة واحدة) .

٤ – وانها (بركات من السماء والارض) ولو قال الارض لكفت الارض الناس بما قدر فيها من أقوات ،ولكنه فضل الله العميم جعلها ابتداءاً من السماء وانتهاءاً بالأرض ، وهو تصوير قرانى بديع يوحى بأن المرء ساعة أن يلبس لباس التقوى ، ويتزين بها فإن البركة ستأتيه من فوقه ومن تحته من السماء والارض ، وكأنه سيفترش البركة ويلتحف بها وإذا كان هذا وعد الله لعباده المتقين ، فما بالنا بالمعصوم (ﷺ) لا شك أن حياة النبى (ﷺ) كانت بركة كلها .

ولقد حفلت كتب السيرة بالكثير من الإحاديث التى اظهرت حجم البركات التى غمرت بها حياته (ﷺ) وسواء اكانت تلك البركة قد تحققت فى ماله هو (ﷺ) ام فى مال غيره ببركة دعائه لصاحب المال ، أم مست يده المباركة المال لصاحبه فطرحت فيه البركة ..

* بعض النماذج من سيرته العطره على عظيم بركته(ﷺ) :

١ – البركة فى الماء :

أما الماء :

وهو اساس الحياة فلقد باركه الله تعالى فى يديه ..

روى البخارى فى الصحيح عن انس بن مالك رضى الله عنه قال : " رأيت رسول الله (ﷺ) وحانت صلاة العصر ، والتمس الناس الوضوء

---

(١) سورة الأعراف : اية رقم : ٩٦ .

فلم يجدوه ،فأتى رسول الله (ﷺ) بوضوء فوضع رسول الله (ﷺ) يده فى ذلك الإناء فأمر الناس أن يتوضأوا منه فرأيت الماء ينبع من تحت أصابعه فتوضأ الناس حتى توضأوا من عند آخرهم)(١) قال العلامة ابن حجر فى شرح هذا الحديث :

(ووقع فى رواية ابن المبارك " فجاء رجل بقدح فيه ماء يسير ، صغر ان يبسط (ﷺ) فيه كفه ضم اصابعه)(٢)

فهذا قدح صغير لا يتسع لكف يفيض لأمة من البشر أنها لبركة النبى (ﷺ) التى لازمته .

ومن المعلوم من السنة ان هذه الواقعة لم تكن الفريدة من نوعها فى حياة النبى (ﷺ) بل تعددت بركته(ﷺ) فى تكثير الماء .

واكتفى هنا بما رواه الإمام أحمد فى المسند عن البراء رضى الله عنه قال :

(كنا مع رسول الله (ﷺ) فى سفر فاتيا على ركى ذمة يعنى قليلة الماء قال فنزل فيها ستة أناس أنا سادسهم ماحة فادليت الينا دلو ، قال ورسول الله صلى الله عليه وسلم على شفتى الركى فجعلنا فيها نصفها أو قراب: ثلثيها ، فرفعت الى رسول الله (ﷺ) ، قال البراء : فكدت بإناني هل اجد شيئا أجعله فى حلقى ؟ فما وجدت فرفعت الدلو الى رسول الله (ﷺ) فغمس يده فيه فقال ما شاء الله أن يقول واعيدت الينا الدلو عا فيها قال فلقد رأيت أحدنا أخرج بثوب خشية الغرق ، قال : ثم ساحت – يعنى جرت نهرا :

قال ابن كثير تعليقا على هذا الحديث فى البداية والنهاية :

تفرد به الإمام احمد واسناده جيد قوى ، والظاهر انها قصة اخرى غير يوم الحديبية ، والله اعلم (٣) .

قال الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا فى شرحه للمسند :

(قال الإمام القرطبى رحمه الله .. قصة نبع الماء من بين أصابعه (ﷺ) قد تكررت منه(ﷺ) فى مواطن فى مشاهد عظيمة ، ووردت من طرق كثيرة يفيد مجموعها العلم القطعى المستفاد من التواتر

---

(١) رقم ١٦٠ .

(٢) ج١ /٣٢٦ .

(٣) البداية والنهاية ٨٣/٦ مكتبة الصفا .

المعنوى ، ولم يسمع بمثل هذه المعجزة من غير نبينا (ﷺ) حيث نبع الماء من بين عصبه ولحمه ودمه (ﷺ) ، قال المزنى : نبع الماء من بين أصابعه (ﷺ) أبلغ فى المعجزة من نبع الماء من الحجر حيث ضربه موسى عليه السلام بالعصا فتفجرت منه المياه لأن خروج الماء من الحجارة معهود بخلاف خروج الماء من بين اللحم والدم ، ومن ذلك تفجير الماء ببركته وانبعاثه بمسه ودعوته (ﷺ)(١) .

وإذا كان العالم اليوم يرى ان مشكلاته المعضلة ندرة المياة ، ويعلن ان الحرب المقبلة هى حرب المياة ، فإن الإسلام يعلن ان الله تعالى قد تكفل لعباده بالماء الكثير ما إن استقاموا على هدى نبيهم ، فليس تكثير الماء بين يديه خصوصية له دون أمته ، وهى وإن كانت معجزة له (ﷺ) إلا أنها من المعجزات التى تلبس ثوب الكرامات ...

قال تعالى : (وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا) (٢) والغدق : الماء الغامر الكثير (٣)

والمعنى : (أى لو امن هؤلاء الكفار لوسعنا عليهم فى الدنيا ، وبسطنالهم فى الرزق .. وماء غدقا اى واسعا كثيرا ، وكانوا قد حبس عنهم المطر سبع سنين .. ومعنى لأسقيناهم لوسعنا عليهم فى الدنيا، وضرب الماء الغدق الكثير لذلك مثلا لان الخير والرزق كله بالمطر يكون فاقيم مقامه) (٤)

قال تعالى:(وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ) (٥)

---

(١) انظر الفتح الربانى : ٢٢/ ٥٥ .

(٢) سورة الجن : آية رقم : ١٦ .

(٣) المعجم الوجيز : ٤٤٦ .

(٤) تفسير القرطبى : ١٠/ ١٣ بتصرف .

(٥) سورة الأنبياء : آية رقم : ٣٠ .

٣ – بركة الطعام :

وإذا كان رسول الله (ﷺ) قد بارك الماء القليل فى يديه معجزة له وتثبيتا للمؤمنين ، فلم تكن البركة خاصة بالماء بل عمت سائر المشروبات والمطعومات ..

فمن ذلك

بركة اللبن ..

ذكر ابن الجوزى فى صفة الصفوة عن مجاهد أن ابا هريرة رضى الله عنه كان يقول :

(والله ان كنت لاعتمد بكبدى على الارض من الجوع – ولقد قعدت يوما على طريقهم الذى يخرجون منه فمر أبو بكر فسألته عن اية من كتاب الله عز وجل ما سألته إلا ليستتبعنى فلم يفعل . ثم مر عمر فسألته عن اية من كتاب الله عز وجل ما سألته إلا ليستتبعنى فلم يفعل

فمر ابو القاسم (ﷺ) فعرف ما فى وجهى وما فى نفسى ، فقال يا ابا هريرة فقلت لبيك يا رسول الله ، فقال : إلحق ، فتبعته فدخل فاستأذنت فأذن لى فوجدت قدحا فيه لبن ، فقال : من اين لكم هذا اللبن؟ فقالوا : أهداه الينا فلان او آل فلان . فقال يا أبا هريرة قلت لبيك يا رسول الله قال : انطلق الى أهل الصفة . قال : وأهل الصفة أضياق الإسلام ، ولم يأووا إلى أهل ولا مال ، وإذا جاءته الصدقة أرسل بها إليهم ولم يصب منها . قال : فأحزننى ذلك وكنت أرجو ان أصيب من اللبن شربة اتقوى بها بقية يومى وليلتى (١)

(فإذا جاءوا أمرنى فكنت أعطيهم ، ومما عسى ان يبلغنى من هذا اللبن ، ولم يكن من طاعة رسول الله (ﷺ) ... فأتيتهم فدعوتهم ، فاقبلوا فاستأذنوا فأذن لهم . وأخذوا مجالسهم من البيت ، قال : يا أباهر ، قلت : لبيك يا رسول الله قال فخذ فاعطهم .فأخذت القدح فجعلت أعطيه الرجل فيشرب حتى يروى ثم يرد على القدح ، فيشرب حتى يروى ، ثم يرد على القدح حتى انتهيت الى النبى (ﷺ) وقد روى القوم كلهم ، فأخذ القدح فوضعه على يده فنظر إلى فتبسم ، فقال : ابا هر ، قلت لبيك يا رسول الله ، قال : بقيت انا وأنت قال : صدقت يا رسول الله ، قال : اقعد فاشرب ، فقعدت فشربت قال : اشرب فشربت ، فما زال يقول اشرب

---

(١) صفة الصفوة : لابن الجوزى ٢٢٥/١ .

حتى قلت : لا والذى بعثك بالحق ما أجد له مسلكا. قال : فأرنى فأعطيته القدح . فحمد الله وسمى وشرب الفضلة)(١) .

وفى هذا الحديث نظرات منها :

١ – تجرد أبى هريرة رضى الله عنه من زخارف الدنيا والانكباب على طلب العلم حتى تبوأ منه مكانا عليا .

٢ – ان البركة غشيت حياة السلف الصالح وعلى رأسهم رسول الله(ﷺ) فهذا قدح اللبن يكفى أهل الصفة وكان عددهم يختلف باختلاف الاوقات ، فهم يزيدون إذا قدمت الوفود المدينة ، ويقلون إذا قل الطارقون من الغرباء ، على ان عدد المقيمين منهم فى الظروف العادية كان فى حدود السبعين رجلا ، وقد يزيد عددهم كثيرا حتى أن سعد بن عبادة كان يستضيف وحده ثمانين منهم فضلا عن الآخرين الذين يتوزعهم الصحابه)(٢)

فالقدح وهو (ثُمن الكيلة من الحبوب)(٣)

وفى الشراب : (آنية تروى الرجلين)(٤)

فإناء يروى الرجلين ، ما إن يوضع فى يده (ﷺ) حتى يفيض ليسقى أهل الصفة ، ثم أتى هذا المتهالك من الجوع سيدنا أبو هريرة رضى الله عنه ليشرب ثم يشرب ثم يشرب كأنه ينهل من نهر لبن لم يتغير طعمه .

انها البركة التى لازمت النبى (ﷺ) طيلة حياته المباركة وسرت فى كيان هذه الامة الطيب ، وكانت ملاط بنيانها المبارك .

بركته (ﷺ) فى طعام لجابر فى غزوة الخندق

يقول سيدنا جابر بن عبد الله رضى الله عنهما (٥):

لما حفر الخندق رأيت النبى (ﷺ) خمصا (٦) شديداً فانكفيت إلى امرأتى فقلت : هل عندك شئ ؟ فإنى رأيت رسول الله (ﷺ) خمصا شديدا،

(١) البخارى مع الفتح كتاب الرقاق رقم ٦٤٥٢ .
(٢) السيرة للصلابى ٢٧٢/١ .
(٣) المعجم ٤٩١ .
(٤) القاموس المحيط ٢٤١/١ .
(٥) البخارى مع الفتح / ٧ / ٤٥٧ برقم ٤١٢ من كتاب الغزوات .
(٦) الخمص : خوص البطن وهو التصاق البطن بالجوف من شدة الجوع ،وهو ضمور البطن لدرجة انه (ﷺ) قد ربط عليها حجرين تخفيضا من عضة الجوع

فاخرجت إلى جرابا فيه صاع من شعير ولنا بهيمة داجن (١) فذبحتها وطحنت الشعير ، ففرغت إلى فراغى ، وقطعتها فى برمتها ، ثم وليت إلى رسول الله (ﷺ) فقالت لا تفضحنى برسول الله (ﷺ) ومن معه (٢) فجئته فسررته فقلت : يا رسول الله ذبحنا بهيمة لنا وطحنا صاعا من شعير كان عندنا، فتعال انت ونفر (٣) معك ، فصاح النبى (ﷺ) يا أهل الخندق ، إن جابراً قد صنع سورا فحى هلا بكم فقال رسول الله (ﷺ) لا تنزلن برمتكم، ولا تخبزن عجينكم حتى أجئ ، فجئت وجاء رسول الله (ﷺ) يقدم الناس، حتى جئت امراتى فقالت بك وبك ، قلت : قد فعلت الذى قلت ، فاخرجت له عجينا فبصق به وبارك ، ثم بصق برمتنا فبصق وبارك ثم قال : ادع خابزة فلتخبز معى ، واقدحى من برمتكم ولا تنزلوها، وهم الف فاقسم بالله لقد اكلوا حتى تركوه وانحرفوا ، وان برمتنا لتغط كما هى وان عجيننا ليخبز كما هو) فى هذا الحديث بيان لعظيم بركات النبى (ﷺ) ، إذ يضع يده فى طعام يكفى رجلين او ثلاثة، فيكفى جيشا فيه الف رجل كانوا فى مخمصة ثم يبقى الطعام كان يدا لم تمسه .

٣ – دعاء الرسول (ﷺ) بالبركة لبعض أصحابه ..

ولقد وعد رسول الله (ﷺ) اصحابه بالبركة فاستجيب له فطوى لهم الزمان والمكان ففتحوا نصف الكرة الأرضية فى خمسين سنة تقريبا ...

ولقد اشتهر لبعض الصحابة دعاؤه (ﷺ) لهم ...

من هؤلاء :

عروة البارقى :

---

(١) بهيمة داجن : البهيمة (يطلق على كل ذات أربع أرجل من دواب البر والبحر ماعدا السباع) المعجم الوجيز ٦٥ و (الداجن) (كل ما ألف البيوت ، واقام بها من حيوان وطير جمع دواجن) المعجم الوجيز ٢٢١ .

والمعنى : انها كانت ترعى فى البيت ، وتصغيرها (بهيمة) افاد انها كانت صغيرة ، وفى رواية انها كانت عناقا وهى انثى الماعز البخارى برقم ٤١٠١ .

(٢) وقولها : لا تفضحنى برسول الله : خوفها ان يزيد عن العدد المطلوب فيفتضح حالهم لقلة ما أعدوا.

(٣) والنفر : هم العدد من ثلاثة إلى عشرة ، وقد حددت الرواية الثانية بيان العدد المطلوب : (انت يا رسول الله ورجل أو رجلان)

(اخرج أبو نعيم فى الدلائل عن عروة البارقى أن رسول الله (ﷺ) لقى جلبا فأعطاه دينارا فقال : (اشتر لنا به شاة) فانطلق فاشترى شاتين بدينار فلقيه رجل فباعه شاة بدينار ثم أتى النبى (ﷺ) بدينار وشاة. فقال له النبى (ﷺ) : (بارك الله لك فى صفقة يمينك) قال : فإن كنت أقوم من الكناسة فما ارجع الى أهلى حتى أربح أربعين الفا وفى رواية ... فدعا له النبى (ﷺ) بالبركة فى بيعة فكان لو اشترى ترابا لربح فيه)[1].

اتسعت الدنيا لعروة البارقى فاستوعبها وعرف حدودها وقدر عليها بركة دعوة النبى (ﷺ) له ، وما دعا له إلا لأمانته التى حملته على أن يأتى بالدنيار كما هو وفوقه الشاة غير منقوصة .

اخرج البخارى عن أبى عقيل إنه كان يخرج به جده عبد الله بن هشام من السوق أو إلى السوق . فيشترى الطعام ، فيلقاه ابن الزبير وابن عمر فيقولان اشركنا ، فإن النبى قد دعا لك بالبركة فيشركه فربما اصاب الراحلة كما هى ، فيبعث بها الى المنزل [2] وهذا التصرف الحميد من ابن الزبير وابن عمر رضى الله عنهما دليل على الثقة بأمر الرسول(ﷺ) فكانا يعترضان عبد الله بن هشام بُغْية ان تصيبهما بركة دعاء النبى (ﷺ) .

٤ – بركته (ﷺ) فى الشفاء :

من ذلك :

رد عين قتادة ببركة دعائه (ﷺ) فى أحد جاء فى كتاب حياة الصحابة للكاندهلوى :[3] عن قتادة بن النعمان قال : (اهدى إلى رسول الله (ﷺ) قوساً فدفعها رسول الله إلى يوم أحد فرميت بها بين يدى رسول الله حتى اندقت سيتها الى يوم أحد فرميت بها بين يدى رسول الله (ﷺ) القى السهام بوجهى كلما مال سهم منها الى وجه رسول الله (ﷺ) ميلت وجهى ورأسى ، لأقى وجه رسول الله (ﷺ) بلا رمى أرميه ، فكان آخرها سهما ندرت منه حدقتى على خدى ، وافترق الجمع ، فأخذت حدقتى بكفى فسعيت بها فى كفى إلى رسول الله (ﷺ) ، فلما رآها رسول الله (ﷺ) دمعت عيناه فقال : اللهم ان قتادة قد وقى نبيك بوجهه فاجعلها أحسن عينيه وأحدهما نظرا ، فكانت احسن عينيه وأحدهما نظرا .

(١) حياة الصحابة للكاند هلوى ٤/٤٧٦ .
(٢) كتاب الشركة رقم ٢٥٠١ ، ٢٥٠٢ .
(٣) (٤/ ٣٨٧ – ٣٨٨)

أن شفاء الأمراض المعضلة بيسير المال رزق عظيم ، فكون الله يصرف عنا البلاء بفيض رحمته ، ويوفر لنا المال الذى ينفق فى مثله اليس هذا رزقا مضاعفا ، وفرة مال وعودة عافيه .

إذا فكون الرسول (ﷺ) قد أوتى تلك البركة أن يضع يده على المريض أو يصيب بريقه المبارك الالم فيبرد ويسكن ويزول فهذا غنى وثراء .

ان ميزانية ضخمة تنفق على وزارة الصحة ، بل ان كثيرا من دخول الأسر لتبتلعها الادوية ..

فكون الله تعالى يستجيب لنبيه (ﷺ) فيجيبه بدعوة يدعوها ويذهب البأس ، فهو الاغناء من الله لنبيه المصطفى (ﷺ) ، وصدق رب العالمين (ووجدك عائلا فاغنى)

وبعد .. هذه بعض النماذج اليسيرة من السيرة النبوية العطرة وكتب السيرة حافلة بالعديد من امثال هذه النماذج – والتى تبين لنا جلاء ان مع البركة يكفى القليل وأن مع غيابها لا ينفع الكثير ، وان الله قد أغنى نبيه بهذا الجانب غنى عجيبا تذهل البشرية عن تقديره .

المطلب الرابع
الغنائم

والغنائم جمع غنيمة وهى ما يؤخذ فى الحرب قهرا..(١)

ولقد من الله تعالى على هذه الامة بان احل لها الغنائم بعد ان كانت تتنزل نار من السماء فتحرقها ولا ينتفع الناس بشئ منها (٢) .

(كُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلاَلاً طَيِّبًا وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)(٣) :

وقال (ﷺ) : "وأحلت لى الغنائم " (٤) .

ولقد جاءت سورة الانفال مبينه الانصبة فى قول الله تعالى : (وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)(٥)

والمعنى أن للرسول خمسه ولذى القربى : قرابة النبى (ﷺ) بنو هاشم وبنو المطلب وحلفاءهم....

وفى تفصيل هذه الانصبة كلام طويل عنى به الفقهاء من جوانب متعدده (٦) .

و (ان الحكم العام الذى تضمنه النص القرآنى : (واعلموا انما غنمتم من شئ فان لله خمسه وللرسول ....) يتلخص فى رد أربعة أخماس كل شئ من الغنيمة الى المقاتلين ، واستبقاء الخمس يتصرف فيه رسول

---

(١) المعجم المفهرس ، وانظر مختار الصحاح ٤٦٣ ، والقاموس المحيط ١٥٨/٤ .

(٢) لحديث البخارى ومسلم (غزا نبى من الأنبياء ، وفيه : فجاءوا برأس بقرة من الذهب فجاءت النار فأكلتها) البخارى برقم ٣١٢٤ ومسلم فى كتاب الجهاد والسير : باب تحليل الغنائم : الغزوة ١٢ / ٥١ ط المكتبة المصرية ومكتبتها .

(٣) سورة الأنفال : آية رقم : ٦٩

(٤) جزء من حديث رواه الإمام مسلم : انظر فتح المنعم بشرح مسلم : كتاب المساجد ومواضع الصلاة : باب الأرض كلها مسجد وتربتها طهور ٤/٥.

(٥) سورة الأنفال : آية رقم : ٤١ .

(٦) انظر : بداية المجتهد ونهاية المقتصد ٣/ ٤٤٦ ، المغنى لابن قدامة ٢٠٠/١٠ زاد المعاد لابن القيم ٢٢٩/٢ ، الجامع لاحكام القرآن للقرطبى ٣/٨ .